اما قاسم فقد وضع في سجن عكا ، في الغرفة رقم ٣٦٢ ، وصار اسمه منذ ذاك : السجين رقم ٣٦٢ .

●

العتبة ترتفع ثلاثة اشبار ، وفوقها يلامس كعب الباب الحديدي الاسود البلاط الرمادي الداكن ، طول الغرفة عشرة اشبار وعرضها عشرة اشبار أمـا سقفها فيرتفع دون حساب ، وفي اعلاه تنفتح كوة صغيرة ينبثق منها قش غاضب . انه موسم الاخصاب عند السنونو ولكنه لا يدخل قط . رأسه فقط يبدو لوهلة مغطى قفاه بالضوء وحين يرف منطلقا ، بين الفينة والاخرى ، تسمع الزنزانة صوت الفرح لحظتين خارجتين عن العقل . الجدران من الحجر الوحشي ، منقور وملطخ ومحطم ولكنه لا يعبر عن شيء . انه تاريخ الاظافر واطراف الصحون والملاعق حين تضحي عند الحبيس كل أدوات فراره المهيض . رجال جاؤوا وحاولوا ومضوا أو أصيبوا بالجنون ، وكان السقف دائما ، أمام عيونهم ، يعلو يوما وراء الآخر وكانت الارض تنخفض تحت العتبة لحظة وراء الاخرى . في اليوم الاول أخذت أعوّد نفسي على ذلك الشيء الرهيب : أن لا أحسب انني في قاع بئر سحيق ، كلما نظرت الى السقف ارتددت لتوي الى اللحظة الاولى التي وطئت فيها هذا المكان : جاؤوا بي من الساحة ، وصعدت ثلاث درجات ومشيت في ممر طويل ضيق ومنبسط تماما ، لم أنزل درجة واحدة . الغرفة اذن في مستوى الارض وليست بئرا . ولكنني كنت اهوي من جديد كلما نظرت الى السقف والجدران والعتبة ، ومن جديد أعود الى البدء في انتفاضة الفرار التي لا تعوض : حين جيء بي الى هنا لم أنزل درجة واحدة .

ظللت واقفا فترة مديدة من الزمن كأنني جدار خامس . ان الانسان لا يمكن ان يكون الا محصلة تجاربه وهو يفترض دائما ان الامور ستعبر ، ورغم ذلك يعتبر ان اعتيادهـا واجب لا فرار منه ، جربت وضعين او ثلاثة اوضاع لنوع مريح من الاستلقاء ، واخيرا وجدت الطريقة التي صار يتعين علي منذ الان أن أقبلها وحدها حالـة للنوم ، وحين استلقيت على ظهري واضعا رأسي في الزاوية كي اكسب شبرا جديدا داهمني ذلك الشعور الذي كنت أعرف انه ذات يوم سيقتحمني كالسيف : انتهى الامر . اخيرا يا عبدالكريم . دارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمها الجدار فسقطت كالخريف . انتهى الامر ، كل دروب الهروب لا تؤدي الا الى العقاب ، بطريقة أو بأخرى . كانت الجريمة في ذاتها عقابا ، كان الاختبار عقابا ، كان الانتقال من عبدالكريم الى قاسم عقابا ، كانت صهوات الخيل في تلك الليالي الجليدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقابا ، كان الرعب عقابا ، كان الصمت عقابا ، كان المسير على النار عقابا ، وهذا هو نهايـة المطاف . عقاب آخر لو كان اعتاده منذ ثلاث سنوات لما كان ، الآن على الاقل ، يكترث به مثلما يفعل هذه اللحظة . ان الجريمة لا منطق لها وكذلك العقاب ، وحين يعتقد المرء انه كان هاربا من العقاب يكتشف فجأة انه كان معاقبا بطريقة خاصة ، كنت مطلوبا ، وكي لا أقع صرت مجرما ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى . وفجأة يأتي العقاب مجرما ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى . وفجأة يأتي العقاب وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت وراء كتفي ويترصد اللحظة المناسبة .

اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد في طول الجليل وعرضه بعد غياب طويل ، كالمد عاد فجأة فاذا به يملأ الجرود مرة اخرى ، من الجرمق الى ترشيحا الى جدين الى عكا . طار الغبار عن خيوط غير مرئية وربطها الناس باعتناء شبكة من الاساطير كانت مجرد احداث لا يكترث بها احد ، وفي اللحظة التي اغلق فيها الباب الحديدي في سجن عكا على قاسم ، او عبد الكريم ، او العاشق ، او السجين رقم ٣٦٢ انفتحت المصاريع عنه في كل القوى التي كانت تتواصل كالشريط البائس الخجول من صفد الى عكا ، صار